من قضايا النقد في العصر العباسي

الدكتور سعود محمود عبد الجابر

تمهيد :

ازدهرت الحياة الادبية و العلمية عند العرب في العصر العباسي ازدهارا عظيما ، اذ امتزجت الثقافات من فارسية و هندية و يونانية بالثقافة العربية ، فكانت ثمرة ذلك حياة ادبية خصبة ، وحركة علمية عظيمة . ففي هذا العصر تهذبت المدارك و تنوعت الثقافات و اتسعت المعارف ، وكان لهذا كله أثر كبير في تطور الادب والنقد . و نرى ان النقد في هذا العصر قام على دعامتين اساسيتين اولاهما التراث النقدي الذي وصل عبر العصور العربية الماضية فقام اللغويون و رواة الاشعار بجمعه و تدوينه و دونوا الكثير في مجال اللغة واشعار الجاهلين والاسلاميين و اقوال النقاد السابقين . و من ابرز هؤلاء الرواة ابو عمر بن العلاء و ابو عبيدة معمر بن المثنى و الاصمعي و حماد الرواية و المفضل الضبي وخلف الاحمر وابو عمرو الشيباني [١] . وثانيهما افادة النقد من ثقافات ومعارف الامم التي امتزجت مع العرب اذ ترجمت معارف الفرس و الهند واليونان الى العربية . و لعل كتابي الخطابة و الشعر لارسطو كانا اكثر الكتب المترجمة تأثيرا في النقد العربي . الكتاب الاول ترجمه الى العربية اسحاق بن حنين و ترجمه ايضا ابراهيم بن عبد الله و فسره الفارابي . و اما كتاب الشعر فلقد اختصره الكندي و ترجمه الى العربية اسحاق بن حنين ايضا [٢] . كما نقله يحيى بن عدي ومتى بن يونس في القرن الرابع من السريانية الى العربية [٣] .

و هكذا لم يعد النقد في العصر العباسي يرتكز كثيرا على الذوق الفطري بل أخذ ينتفع بكل ما اتت به النهضة العلمية في مستهل ذلك العصر ، و بدأ يعتمد على قواعد و اصول ثابتة و اضحة فقام على الثقافة و التبحر و المنطق و لم يعد

سهلا فطريا كما كان في العصور السابقة و انما اصبح متشعب النواحي متأثرا بالنهضة العلمية تأثرا كبيرا .

و في هذا العصر نشأ نوع جديد من النقد و هو النقد البلاغي الذي يعتمد على البلاغة و فنونها . و نرى ان المعتزلة كان لهم أثر كبير في نشوء هذا اللون من النقد ، ومن الملاحظ ان المعتزلة كانوا يطلبون معرفة ما عند الامم الاخرى من آراء في البلاغة و مسائلها المتشابكة . وفي البيان و التبيين للجاحظ صحف مختلفة تصور هذا الطلب (٤) .

و لعل خير ما أثر عن المعتزلة في مجال النقد البلاغي حتى اوائل القرن الثالث صحيفة بشر بن المعتمر (المتوفي سنة ٢١٠هـ) و التي اوردها الجاحظ في البيان و التبيين كاملة غير منقوصة . و هي تتضمن نصائح عامة للكتاب تتعلق بالكتابة و تحتوي على ما يشترط لهذه الكتابة من توفر و تخير الوقت و بعد عن التوعر في اللفظ و تجنب الحوشي و التعقيد في الكلام (٥) .

و كان الجاحظ من الادباء الاوائل الذين اهتموا بالبيان العربي و لقد أفرد له كتابا خاصا سماه البيان و التبيين و جاء فيه كثير من المصطلحات و الدلالات البلاغية كالبيان و الفصاحة و البديع و الاستعارة و التشبيه و الكناية و الاطناب ...الخ ، وعرض الجاحظ لهذه المصطلحات عرضا ادبيا و لغويا ليس فيه التحديد والضبط الذي نراه عند المتأخرين .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري ألف ابن المعتز كتابه (البديع) فكان أول كتاب تناول الادب تناولا فنيا و شرح عناصر الحسن فيه و به انتقل النقد الى طور جديد و هو طور العناية بالصورة الفنية . و من ناحية اخرى يعد هذا الكتاب اول كتاب خاص في البلاغة العربية و اصبح هذا اللقب علما على واحد من علومها الثلاثة المعاني و البيان و البديع (٦) .

و في القرن الرابع للهجرة اسهم قدامة بن جعفر في تطوير النقد المرتكز على أسس بلاغية و ذلك من خلال مؤلفة القيم نقد الشعر الذي كان له أثر واضح في

تطوير علوم البلاغة و النهوض بها . و قد أفاد البلاغيون الذين اتوا بعد قدامة منه كثيرا .

و مجمل القول : ان النقد تطور في هذا العصر تطورا كبيرا و ألفت المصنفات الادبية ، و وضعت الكتب النقدية التي تبحث في النقد من شتى جوانبه .

و لعل من أهم القضايا النقدية التي برزت في ذلك العصر و التي تباينت الاراء فيها و التي كانت مدار عناية النقاد انما هي : وضع الشعر و انتحاله ، و الصراع بين الحديث و القديم ، و الخلاف حول اللفظ و المعنى ، و الموازنة بين الشعراء .

١- وضع الشعر و انتحاله :

كان ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) اول ناقد يبحث قضية الانتحال بحثا منهجيا مستفيضا في كتاب طبقات فحول الشعراء و لقد تنبه بعض الرواة قبل ابن سلام الى موضوع الشعر المنحول فجرحوا الوضاعين و نبهوا على ذلك الشعر ، فالمفضل الضبي نقد حماد الرواية و بيّن اكاذيبه ، و كذلك فعل الاصمعي في نقده لخلف الاحمر [٧] . و لكنها كانت آراء و اقوالا عامة غير محددة . أما ابن سلام فلقد درس هذه الظاهرة دراسة مستقصية و بحث أسبابها و أعاد ذلك الى عاملين أساسيين وهما : العصبية القبلية و الرواة و الوضاعين وأوضح ذلك في قوله فلما راجعت العرب رواية الشعر و ذكر ايامها و مآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم و ما ذهب من ذكر و قائعهم ، و كان قوم قلت وقائعهم و اشعارهم و ارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع و الاشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم [٨] .

و العامل الآخر الذي عزا اليه ابن سلام أسباب ظاهرة الانتحال هو زيادة الرواة في الاشعار و اتهم حماد الرواية بانه غير موثوق في روايته و كان ينحل شعر الرجل غيره و يزيد في الاشعار [٩] .

و يقول عن حسان بن ثابت و قد حمل عليه ما لا يحمل على احد لما تعاضهت قريش و استبت و ضعوا عليه اشعارا كثيرة لا تليق به [١٠] .

و ذكر ابن سلام ان هذا المنحول منه ما تسهل معرفته و منه ما يصعب تحديده ، فالسهل معرفته ما وضعه الرواة و المولدون ، و اما الشعر الصعب تحديده فهو ما وضعه اهل البادية من أولاد الشعراء أو من غيرهم . و ذكر ان بعض أبناء الشعراء الاعراب كانوا يزيدون في الاشعار التي يروونها عن اباءه افعل داود بن متمم بن نويرة عندما استنشده ابو عبيده ، فأنه لما نفذ شعر ابيه جعل يزيد في الاشعار و يضعها و اذا كلام دون كلام متمم فاذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم و الوقائع التي شهدها (١١) .

و يرى ابن سلام ان محمد بن اسحاق كان ممن هجن الشعر و افسده وحمل منه كل غثاء ، فكتب في السيرة اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، واشعار النساء فضلا عن اشعار الرجال (١٢) . و كان يعتذر ويقول لا علم لي بالشعر و انما أوتى به فاحمله . و لكن هذا العذر في رأي أبن سلام غير مقنع ولا مقبول .

و حاول ابن سلام ان يخلص الشعر الصحيح من المنحول وفق منهج علمي سليم فهو يحقق الشعر الصحيح من المفتعل و يضع لذلك حدودا فينكر الشعر المنسوب الى عاد و ثمود و يتساءل من حمل هذا الشعر و من اداه منذ الوف السنين و الله تبارك و تعالى يقول : [و انه أهلك عادا الاولى و ثمود فما أبقى] و في عاد [فهل ترى لهم من باقية] و قال : [و عادا و ثمود و الذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله] (١٣) .

و يورد سببا آخر يؤيد رأيه ويقيم البرهان على فساد ما ذهب اليه ابن اسحاق من ايراده في سيرته شعرا كثيرا مصنوعا و منسوبا لعاد و ثمود . فاللغة العربية بهذا الشكل لم تكن موجودة في عهد عاد ، و ان عادا من اليمن و لليمنيين لغة حميرية و هي غير اللغة المضرية و تختلف عنها . و بذا يكون كل ما جاء من الشعر منسوبا اليهم باطلا و غير صحيح .

و يستمد دليلا آخر من تاريخ الشعر العربي اذ أن أوائل العرب لم يكن لهم من الشعر الا الابيات يقولها الرجل في حادثة و انما قصدت القصائد و طول الشعر على عهد عبد المطلب و هاشم بن عبدا لمناف . و هذه الحقيقة تنفي صحة كل قصيدة تعزى الى عهد عاد و ثمود و حمير و تبع [١٤] .

و كما وضح ابن سلام أسباب الانتحال و تعرض للمنتحل منه فأنه حدد الادوات التي تساعد الناقد في تميز صحيح الشعر من منحوله . و هذه الادوات هي :

اولا : الإحاطة بخصائص الشعر ، إذ للشعر صناعة و ثقافة يعرفها اهل العلم كسائر اصناف العلم و الصناعات .

ثانيا : الممارسة ، فان كثرة المدارسة لتعدي على العلم .

ثالثا : الموهبة ، و هي شرط لابد من توفره في الناقد بدونها لا يمكنه ان يميز بين الجيد الرديء و الصحيح و المنحول .

و لقد عالج الجاحظ قضية الانتحال . و كان ينسب الشعر الى شاعر بعينه ثم يعقب عليه بقوله : إن كان قالها و قد تكرر ذلك منه في مواطن عديدة من كتاب الحيوان [١٥] . و كان يقطع احيانا بان الشعر منحول . و كان يعتمد في ذلك على شهادة الرواة و على مبدأ تفاوت الشعر و مثال ذلك انه يروي بيتا منسوبا لأوس بن حجر فيقول :

فانقض كالدري يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

و يروي الجاحظ ان هذا البيت ليس يرويه لأوس الا من لا يفصل بيت شعر أوس و شريح بن أوس [١٦] .

و كان يلجأ الجاحظ في رأيه الى المحاججة و المناقشة و تحكيم المنطق فهو يروي قول الافوه الاودي :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

و يعلق الجاحظ على هذا البيت قائلا : فمن أين علم الأفوه ان الشهب التي يراها انما هي قذف و رجم و هو جاهلي ، و لم يدع هذا أحد قط الا المسلمون [١٧] فالجاحظ ينكر ذلك و يرى ان القرآن الكريم أشار الى ان الشهب رجم للشياطين وان العرب في الجاهلية لم يكونوا يعلمون ذلك . و من هذا أستنتج ان البيت منحول .

٢- القديم و الحديث :

سلك الشعر في العصر العباسي مسلكا جديدا ، و نشأت معان جديدة عبر عنها الشعراء في مذاهب مختلفة ، و وجدت منذ مطلع هذا القرن مدرسة بيانية جديدة شيخها بشار بن برد و من رجالها ابن هرمه و العتابي و منصور النمري وابو نؤاس و مسلم بن الوليد . و كان لهذه المدرسة فضل التجديد في المعنى والاسلوب و كانت بعيدة الاثر في الشعر و النقد . وأصبح الشعر منذ ذلك العصر مذهبين مختلفين ، وأصبح الشعراء طائفتين أحداهما تسير في طريق التجديد والاخرى تسلك مسلك الشعراء الاقدمين و تحتذي حذوهم بالصياغة على منوالهم . ومن هؤلاء مروان بن ابي حفصة و علي بن الجهم و دعبل الخزاعي و غيرهم .

و اختلف النقاد فمنهم من مال للقديم و تعصب له و لا يرى شعرا سائغا سواه و منهم من كان يرى ان الشعر فن و صناعة و لذا يجب ان يقاس بهذا المقياس بغض النظر عن قدمه و حداثته . وكان ابن سلام الجمحي من اوائل النقاد الذين تعرضوا لمسألة القديم و الحديث في كتابه طبقات فحول الشعراء . و هو يميل لتفضيل القديم لقدمه و يسير في تصنيف الشعراء على ما سار عليه من قبله من مراعات العصر و الاعتداد بالزمان فجعل شعراء الجاهلية في عشر طبقات وشعراء الاسلام و المخضرمين في عشر طبقات اخرى و لم يجمع بين شاعر جاهلي و أسلامي . و هكذا كان الامر بالنسبة للموازنات التي سبقته و التي كانت تصدر عن بعض النقاد .

و لعل الجاحظ من أسبق نقاد العربية في التخلص من النظرة التعصبية للشعر القديم لقدمه فقط ، فقد كان يستحسن الشعر لما فيه من أصالة و جودة و يستقبحه لما فيه من سقم و اسفاف . و لهذا كان مفتونا بشعر بشار و هو من المحدثين ، وعنده ان بشارا يجري في بيانه مع العيوق فهو يقول : [وما كان ينبغي لبشار ان يناظر حمادا من جهة الشعر ، و ما يتعلق بالشعر ، لان حمادا في الحضيض وبشارا مع العيوق] (١٨) .

و كان يفضل ابا نؤاس ايضا على غيره من الشعراء و هو يستحق التفضيل لانك كما يقول ان تأملت شعره فضلته ، الا ان تعترض عليك فيه العصبية او ترى ان أهل البدو أبدا أشعر منه ، و ان المولدين لا يقاربونهم في شيء فأن اعترض هذا الباب عليك فانك لا تبصر الحق من الباطل (١٩) .

و لقد سار ابن قتيبة على خطى الجاحظ و طور فكرته القاضية بتفضيل الشعر لجودته لا لزمنه و قدمه فيقول : [و لم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلّد او استحسن باستحسان غيره و لا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه و الى المتاخر منهم بعين الاحتقار ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين و اعطيت كلا حظه و وفرت عليه حقه] (٢٠) .

و يبين ان من العلماء في عصره من يستجيد السخيف لتقدم قائله و يضعه في متخيره و يرذل الشعر الرصين و لا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه او انه راى قائله . و لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خصّ به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر . و جعل كل قديم حديثا في عصره ، و كل شريف خارجيا في اوله . فقد كان جرير و الفرزدق و الاخطل و امثالهم يعدون محدثين ، و كان ابو عمرو ابن العلاء يقول لقد كثر هذا المحدث و حسن حتى لقد هممت بروايته (٢١) .

و هذا رد واضح صادق على النقاد الذين فضلوا الشعر لقدمه و رتبوا الشعراء في طبقات تبعا لتقدم بعضهم على بعض في الزمن ، و بهذا يختلف

اختلافا كليا عن ابن سلام الذي اتخذ من الزمن عاملا أساسيا في ترتيبه لطبقات الشعراء . فهو يدعو الى عدم التفريق بين قديم و محدث الا من ناحية الجودة فالقديم قد يكون جيدا و قد يكن رديئا و كذلك الامر بالنسبة للشعر المحدث ففيه الغث و فيه السمين . و كل قديم كان حديثا في عصره .

و نرى ان ابن قتيبة في قوله هذا يضع مبدأ فكريا جوهريا في النقد اذ انه ينادى بالفصل بين الشعر و زمن قائله فلا يحكم على الشعر بالقبول او الاستهجان لان قائله يعيش في زمن معين ، بل يجب ان يحكم عليه لجودته او قبحه وان يقدر بمقدار ما حوى من عناصر الجمال التي تسمو به ، و تميزه من سواه . ولا شك ان هذا مبدأ سديد في النقد . و ان كلامه كلام ناقد يدعو الى التجديد ، و الى النظرة المجردة من غير تأثر بنظرة الغير .

و على الرغم من هذه الاراء القيمة التي جاء بها ابن قتيبة و خرج بها على الاصول النقدية المحافظة الا انه لم يستطع الخروج الكامل على مذهب القدماء فدعا لضرورة الالتزام بأسلوبهم في بناء القصيدة و لم يسمح لمتأخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر و يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر و الرسم العافي ، كما لم يقبل ان يرحل متأخر الشعراء على حمار او بغل و يصفهما لان المتقدمين رحلوا على الناقة او البعير ، او يرد المياه العذاب الجواري لان المتقدمين وردوا على الاواجن الطوامي ، او يقطع الى الممدوح منابت النرجس والأس والورد لان المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح و العرار [٢٢] .

ولا ادري لماذا يمنع ابن قتيبة الشاعر المتأخر من ان يعبر عن تجربته الذاتية ، و ينطلق من بيئته و عصره فيدع التكلف و يبتعد عن التقليد و المحاكاة . و كان من الاجدر به ان يدع لمتأخر الشعراء حرية التعبير عن ذاته دون قيد فهذا الامر ينسجم اكثر مع دعوته التي ينادى بها و التي لا تفرق بين الشعر القديم والحديث الا من حيث الجودة الفنية و ان القديم لا يفضل الحديث لقدمه .

و زاد احتدام المعركة النقدية في القرن الثالث حول الشعر المحدث و معانيه و اساليبه و اختلف النقاد بين مؤيد و معارض و كان لذهب ابي تمام في البديع دور كبير في احتدام هذا الخلاف ، اذ عدّ امام مذهب جديد يميل الى الصنعة والتزيين و التنميق و البديع ، وهو امر لم يعهد في الشعر القديم ، فألف عبد الله بن المعتز كتابه [البديع] الذي يعد أول كتاب في هذا المجال ، و مال الى القول ان المحدثين امثال بشار و مسلم و ابي نواس لم يسبقوا الى هذا الفن و انه موجود في القرآن الكريم و اللغة و احاديث رسول الله صلى الله عليه و سلم و كلام الصحابة و العراب و غيرهم و لكنه كثر في اشعار المحدثين فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه و دل عليه ثم اشار الى ان ابا تمام شغف به حتى غلب عليه و تفرع فيه و أكثر منه فأحسن في بعض ذلك و أساء في بعض وتلك عقبى الافراط و ثمرة الاسراف ، و انما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت و البيتين في القصيدة و ربما قرئت من شعر احدهم قصائد من غير ان يوجد فيها بيت [بديع] و كان يستحسن ذلك منهم اذا أتى نادرا و يزداد حظوة بين الكلام المرسل [٢٣] .

و يجب الا نتوهم من قول ابن المعتز هذا انه كان معارضا للأتجاه الحديث في الشعر فلقد كان بالعكس مناصرا له و مولعا به و هو صاحب كتاب البديع الذي يعد اول محاولة في الادب العربي من نوعها فقد بحث خصائص مذهب البديع وحاول ان يحصيها و كان هذا فيما يبدو من اكبر الاسباب التي أدت الى تمكّن الخصومة بين أنصار القديم و أنصار الحديث . أذ اصبحت مباديء المذهب معروفة محددة و الناظر في موازنة الامدى و في اخبار أبي تمام للصولي أو في وساطة الجرجاني أو في غيرها من كتب الادب يجد ان ابن المعتز قد أثر على هؤلاء جميعا [٢٤] .

و كان ابن طباطبا من النقاد الذين يعجبون اعجابا كبيرا بشعر الاقدمين وهو يرى أنه اذا اتفق لك في اشعارهم تشبيه لا تتلقاه بالقبول او حكاية تستغربها

فابحث عنه و تقر عن معناه فانك لا تعدم ان تجد تحته خبيئة اذا اثرتها عرفت فضل القوم بها ، و علمت انهم ادق طبعا من ان يتلفظوا بكلام لا معنى تحته وربما خفى عليك مذهبهم في سنن يستعملونها بينهم في حالات يصفونها في اشعارهم فلا يمكنك استنباط ما تحت حكايتهم و لا تفهم مثلها الا سماعا ، فاذا ما وقفت على ما ارادوه لطف موقع ما تسمعه من ذلك عند فهمك [٢٥] .

و ابن طباطبا و ان كان من المعجبين بالشعر القديم لروعته الا انه لا يتعصب للقديم لقدمه ، و لا يقف ضد الجديد لحداثته و هو يرى ان الزمن لا يكسب الشعر فضلا ، و يوازن في كثير من الاحيان بين شعر الاقدمين والمحدثين و يرجح ما جاد منه بغض النظر عن زمان قائله و يقرر انك ستعثر في اشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم و لطفوا في تناول اصولها منهم ولكنهم تكثروا بأبداعها فسلمت لهم للطيف سحرهم فيها و زخرفتهم لمعانيها [٢٦] .

و ذهب عبد العزيز الجرجاني في كتابه [الوساطة بين المتنبي و خصومه] مذهب ابن قتيبة ، فوقف بين القدماء و المحدثين موقف القاضي النزيه فلم يتعصب للقديم لقدمه و لا انتصر للحديث لحداثته .و انما نظر الى جودة الشعر في ذاته ، ورأى ان الشعر يتأثر بالزمن و البيئة فلذلك من الخطأ أن تفرض شروطا على الشعراء المولدين من خارج بيئتهم و عصرهم . و يجب الا يطلب منهم ان يتخذوا حذو الجاهلين في بنائهم الشعري و صورهم و اخيلتهم و معانيهم اذ ان العصر و البيئة مختلفان ، و الشعر يتأثر بهما .

٣- اللفظ و المعنى :

ان قضية اللفظ و المعنى او الشكل و المضمون في اصطلاحنا المعاصر من أهم القضايا التي اهتم فيها النقاد في شتى الاداب في القديم و الحديث .

و لعل الجاحظ من اوائل النقاد الذين بحثوا هذا الموضوع في العربية فوازن بين اللفظ و المعنى و تحدث عنه في اكثر من موطن و ذهب بعض الباحثين الى ان الجاحظ من انصار اللفظ و تفضيله على المعنى و انه لايكترث بالمعنى

ولا يهتم به و يؤثر عليه اللفظ . و ارى ان سبب قولهم هذا يرجع لسؤ فهم لهذه الحادثة التي ذكرها الجاحظ حين قال : [.. سمعت ابا عمر و قد استجاد بيتين من الشعر و نحن في المسجد يوم الجمعة حتى كلف رجلا بكتابتهما و هما :

لا تحسبن الموت موت البلى

و انما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت و لكن ذا

افظع من ذاك على كل حال

و ذهب ابو عمر الى استحسان المعنى .. و انا ازعم ان صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا ابدا ، و لو لا ان ادخل في بعض القيل لزعمت ان ابنه اشعر منه . والمعاني في الطريق يعرفها العربي و العجمي و البدوي و القروي و انما الشأن في اقامة الوزن و تمييز اللفظ و سهولة المخرج ، و صحة الطبع و جودة السبك فانما الشعر صنعة و ضرب من الصنع و جنس من التصوير] (٢٧) .

و المتمعن في قول الجاحظ يرى انه من الواضح في قوله انه يتهكم و يسخر من ذوق الشيخ ابي عمرو و الذي يستحسن هذين البيتين اللذين لا معنى جديدا او طريفا فيهما كما انه يسخر من الصياغة المهلهلة لهذين البيتين ، و لذلك انتهى الى القول ان الشعر صناعة سبك و تصوير . هذا من جهة و من جهة اخرى أليس من الخطأ ان نحكم على الجاحظ و نحدد موقفه من قضية اللفظ و المعنى من خلال هذه الرواية ، فالجاحظ كما نعلم لم يورد افكاره في باب واحد في احد مؤلفاته و انما اراؤه مبثوثة في اكثر من مكان في كتبه و هذا يقتضي من الباحث قبل ان يسارع الى اتخاذ حكم و تحديد راي ان يقف متريثا و يمعن النظر في مختلف مؤلفاته حتى يمكنه ان يصل الى راي صائب في هذا الموضوع .

و لقد طرق الجاحظ قضية اللفظ و المعنى كما قلنا في اكثر من موطن في كتبه و الح على ضرورة الاهتمام بهما و مراعاة المزاوجة بينهما . و قال : [و احسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره و معناه في ظاهر لفظه ... فاذا

كان المعنى شريفا و اللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه و منزّها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة] (٢٨) .

و الجاحظ يشيد بأهمية المعنى في أكثر من موضوع مما يدل على انه لم يهتم باللفظ الا لجلاء الصورة الادبية ، و من هذا ما ذهب اليه من ان الالفاظ لا بد من ملاء متها للمعاني اذ لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ و لكل معنى من المعاني نوع من الاسماء فالسخيف للسخيف و الخفيف للخفيف و الجزل للجزل والافصاح في موضع الافصاح و الكناية في موضع الكناية (٢٩) .

و يرى الجاحظ في اكثر من مكان في مؤلفاته ضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى و الملاءمة بينهما و هما عنده ركنان اساسيان لا بد من مراعاتهم على حد سواء في العمل الادبي .

و ذهب ابن قتيبة مذهب الجاحظ ، و رأى ضرورة الاهتمام باللفظ و المعنى، و جعل الشعر اربعة اضرب (٣٠) :

(أ) ضرب حسن لفظه و جاد معناه ، وهو الذي ينشده و يفضله على بقية الانواع الاخرى .

(ب) وضرب حسن لفظه و حلا فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى .

(ج) وضرب جاد معناه و قصرت الفاظه عنه .

(د) وضرب تاخر معناه و تاخر لفظه .

و يبني ابن قتيبة اراءه في تقويم الشعر على اساس جودة اللفظ و المعنى معا .

و للفظ و المعنى عند ابن قتيبة دلالات خاصة . فاللفظ عنده معناه النظم و التأليف ، و يريد به الصياغة جميعها بما تضمنه من اللفظ و الوزن و الروي . و هو عندما قال حسن اللفظ عنى سلامة الوزن و حسن الروي و متخير اللفظ . اما المعنى في الشعر عنده فيبدو انه يعني الافكار الفلسفية و الخلقية الخاصة او مجرد المحتوى المنطقي للكلام .

وجاء قدامة بن جعفر و كان متأثرا بالفلسفة اليونانية اذ ترجم كتاب الخطابة لارسطو كما ذكرنا سابقا الى العربية في النصف الاخير من القرن الثالث . و قد أثر هذا الكتاب على فهمه للعلاقة بين اللفظ و المعنى . وهو يستهويه التجريد و التقرير فيعرف الشعر بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى . و تتالف من هذه العناصر الاربعة اربعة عناصر اخرى هي :

(١) ائتلاف اللفظ مع المعنى او الوزن .

(٢) ائتلاف المعنى مع الوزن او القافية .

وواضح من تقسيماته المنطقية هذه انها مجافية لروح الشعر و طبيعته اذ انها تنظر لهذا الفن الانساني الجميل كأنه قواعد منطقية غير عابئة بالايحاءات والدلالات الجميلة التي هي السمة الاساسية للشعر .

و يرى قدامة بن جعفر ان المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة و الشعر فيها كالصورة ، كما يوجد في كل صناعة من انه لابد فيها شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشب للنجارة ، و الفضة للصياغة [٣١] .

فقدامة يهتم اكثر ما يهتم اللفظ و الشكل الخارجي لان اللفظ بمثابة الصورة و المعنى بمنزلة المادة الموضوعة و المهم هو الشكل الذي تتخذه تلك المادة .

و ذهب ابن طباطبا في هذا الامر مذهبا مغايرا لمذهب قدامة بن جعفر اذ اهتم بالملاءمة بين اللفظ و المعنى و رأى ان للمعاني الفاظا تشاكلها فتحسن فيها و تقبح في غيرها فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض و كم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي ابرز فيه و كم معرض حسن ابتذل على معنى قبيح ألبسه [٣٢] .

وعند ابو طباطبا الكلام جسد و روح ، و جسده المنطق و روحه معناه فواجب على صانع الشعر ان يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة مجتلبة لمحبة السامع له و الناظر بعقله اليه مستدغية لعشق المتأمل في محاسنه والمتفرس في بدائعه فيحسه جسما و يحققه روحا أي يتقنه لفظا و يبدعه معنى [٣٣] .

و ظلت هذه القضية تسيطر على اهتمام النقاد منذ زمن الجاحظ و لفترة زمنية طويلة فها هو أحد نقاد اواخر القرن الرابع الهجري ابو هلال العسكري يجعل اللفظ مدار البراعة و الحسن في الشعر و يفضله على المعنى فيقول : [وليس الشأن في ايراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي و العجمي و القروي والبدوي ، و انما هو في جودة اللفظ و صفائه و حسنه و بهائه ، و نزاهته و نقاءه وكثرة طلاوته و مائه مع صحة السبك و التركيب و الخلو من أود النظم والتأليف (٣٤) .

و اهتم ابن رشيق القيرواني بقضية اللفظ و المعنى و ربط بينهما برباط المادة و الروح حينما قال : [اللفظ جسم و روحه المعنى ، و أرتباطه به كأرتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه و يقوى بقوته] (٣٥) .

وفي القرن الخامس للهجرة ألف عبد القاهر الجرجاني كتابه دلائل الاعجاز وفي هذا المؤلف وضع اسس نظرية النظم و هو يرى ان بلاغة التعبير الادبي لا ترجع الى اللفظ وحده و لا الى المعنى وحده ، ولكنها ترجع الى ارتباط هذا بذلك ، و انتظامها في سياق لغوي واحد . و هو يرى ان الالفاظ سواء لا فضل لاحداهما على صاحبتها و يوضح هذا قوله معقبا على بعض النصوص التي اوردها في هذا الشان : [فقد اتضح أذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مفردة و لا من حيث هي كلم مفردة ، و ان الالفاظ تثبت لها الفضيلة ، في ملائمة اللفظة لمعنى التي تليها ، او ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ] (٣٦) .

و يحدد معنى النظم تحديدا دقيقا فيقول : [و كما لا تكون الفضة خاتما او الذهب سوارا او غيرهما من اصناف الحلي بأنفسهما و لكن بما يحدث فيهما من الصورة كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي اسماء و افعال وحروف كلاما وشعرا من غير ان يحدث فيها النظم الذي حقيقته توخى معاني النحو و احكامه (٣٧).

و يعرف عبد القاهر النظم فيقول : [واعلم انه ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، و تعمل على قوانينه و اصوله و تعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها . فانت لا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم او فساده الا وانت تجد مرجع تلك الصحة و ذلك الفساد الى معاني النحو و احكامه و تجده يدخل في اصل من اصوله و يتصل بباب من ابوابه] (٣٨) .

و صحة الاعراب عنده لا تكفي لجمال العبارة لان الكلام مرتبط بترتيب الالفاظ و الالفاظ ترتيبها ليس الا ترتيبا للمعاني النفسية . اذ ليس الغرض بنظم الكلم ان توالت الفاظها في النطق بل تناسقت دلالتها و تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل . و هو لا يعتد بالكلام الذي كل فضيلته نيل الصواب و الخلو من الخطأ فتلك مرحلة لا يعتد بها . و الكلام عنده على درجتين : الدرجة الاولى ان يقف الكلام عند الخلو من الخطا و التحرز من اللحن و هذه درجة لا شأن لرجال البلاغة بها لأنهم يهتمون بالكلام عندما تكون فيه امور تدرك بالفكر اللطيفة ودقائق يوصل اليها بثاقب الفهم و تلك هي الدرجة التي يهتم بها البلاغيون (٣٩) .

ويؤكد عبد القاهر نظرية النظم في كتابه اسرار البلاغة ، و يقرر ان البلاغة لا ترجع الى اللفظ بل الى النظم الذي معناه مراعاة معاني النحو فيما بين الكلم ، فيقول : [اما رجوع الاستحسان الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه فلا يكاد يعدو نمطا واحدا و هو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ولا يكون وحشيا غريبا او عاميا سخيفا] (٤٠) .

و في اكثر من موطن في اسرار البلاغة يؤكد عبد القاهر الجرجاني ان البلاغة لا ترجع الى اللفظ بل الى النظم ، و الجناس لا يكون مقبولا و لا السجع حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه و استدعاه(٤١) ، كما ان الاستعارة لا تكون جميلة حتى يصل معناها الى القلب مع وصول لفظها الى السمع (٤٢) .

و لا شك ان الجرجاني بهذا الادراك الواعي للنظم قد سبق ما وصل اليه بعض النقاد الاوربيين من نتائج في هذا الشان فله نظرته الخالدة المتكاملة التي تجمع بين الفلسفة اللغوية و الذوق . وهو بمنهجه هذا و خاصة فيما يتعلق بموضوع دلالات الالفاظ و ارتباطها بعضها ببعض سبق ما وصل اليه بعض علماء علم اللغة من الاوربيين في عصرنا الحديث في هذا المجال ، و ما وصل اليه بعض نقادهم كذلك و منهجه هو المنهج المعتمد اليوم في الغرب في فلسفة اللغات و نقد الادب و من اعلامه العالم السويسري دي سوسير . الذي اوضح ان للغة في الزمن الواحد و في المكان الواحد بنيتها المتكاملة و ان من واجب علم اللغة ان يصف ملامح اللغة الواحدة في الزمن الواحد و في المكان الواحد . و بهذا وجه مجال البحث اللغوي الى التركيز على بنية اللغة مطالبا بضرورة ايجاد المناهج الموضوعية لتحليلها و بهذا ظهر علم اللغة الوصفي باتجاهاته المختلفة وظهرت مدارس متعددة منها البينوية . فأثرت تأثيرا بعيدا في الدراسة الاسلوبية لبنية النصوص الادبية (٤٣) .

٤- الموازنة بين الشعراء :

عرفت الموازنة في الادب العربي منذ العصر الجاهلي و كانت وسيلة من وسائل النقد . و في صدر الاسلام استمرت الموازنة بين شعر الشعراء أساسا للمفاضلة . و في العصر الاموي كثرت الموازنة بين فحول الشعراء سواء في مجال الغزل او الهجاء او المدح و خلف لنا ابن ابي عتيق و سكينة بنت الحسين وغيرهما من نقاد ذلك العصر ثروة نقدية قيمة في هذا الميدان .

و في العصر العباسي زاد الاهتمام بالموازنة بين الشعراء و نما هذا الأتجاه النقدي نموا سريعا ، و اتسع بالشمول و الدراسة الواعية للنصوص التي يوازن بينهما من شتى الجوانب الذوقية و الفنية و البلاغية و اللغوية و النحوية . كما اتسعت الموازنة بميلها للتعليل و تحديد المبررات للجودة او الرداءة في الشعر .

ومن الناحية التأريخية فأننا نرى ان بن سلام الجمحي كان من اوائل النقاد الذين طرقوا باب الموازنة في مجال التأليف اذ جعل الشعراء الجاهليين طبقات و المخضرمين و الاسلاميين طبقات اخرى و اعتمد في تصنيفه للشعراء على الموازنة بينهم وارجع اسس المفاضلة الى الجودة و الكثرة في الشعر و تنوع اغراضه . اما من الناحية الفنية فأن كتابي الموازنة للامدي و الوساطة للجرجاني هما الكتابان اللذان يمثلان وثبة النقد المنهجي في مجال الموازنة بين الشعراء في القرن الرابع للهجرة . و قبل ان نعرض لهذين الكتابين أرى ان نبين اتجاهات النقد في العصر العباسي و التي كانت سببا مهما لتأليفهما ، فلقد شهد العصر العباسي كما ذكرنا سابقا اختلافا حادا منذ بدايته حول تيارين شعريين احدهما مال الى التقليد و محاكاة الشعراء القدماء والاخر اتجه نحو التجديد في المعاني والاساليب . و اشتدت حدة الخصومة هذه في القرن الثالث للهجرة و تركزت حول ابي تمام الذي نهج في شعره نهجا جديدا فمال الى الاغراق في البديع و الصنعة و أهتم بتوليد المعاني و استنباطها و التجديد فيها مع ميل الى غريب المعنى و اللفظ، و خالف بهذا طريقة الشعراء القدماء .

و مما زاد الخصومة حدة حول شعر ابي تمام ربط النقاد بين شعر ابي تمام والبحتري و مقارنتهم بينهما و مخالفة مذهب البحتري الشعري لمذهب ابي تمام اذ كان يهتم بالموسيقى اللفظية و يسلك مسلك الشعراء الاقدمين و يسير على نهجهم مع ميل الى السلاسة في التعبير و صحة السبل و وضوح المعنى لذا قيل : ان ابا تمام خرج على عمود الشعر والتزم البحتري به .

و هكذا كانت الخصومة النقدية شديدة حول مذهب ابي تمام الشعري و كان هذا الاتجاه الذي سلكه الشغل الشاغل لنقاد ذلك العصر و ذهبوا في ذلك مذهبين متعارضين فمن ذا هاج ناعت لابي تمام بالسرقة و الاخذ من غيره من الشعراء . و من مادح مقر معجب بمذهبه و طريقته . و لقد ألف احمد بن ابي طاهر و احمد بن عمار القطربلي المعروف بالعزيز كتبا في سرقات ابي تمام و احالاته

و اغلاطه [٤٤] و ألف عبد الله بن المعتز رسالة انتقص فيها من شعر ابي تمام وقدرته الفنية و سماها [محاسن شعر ابي تمام و مساويه] و لم تصلنا هذه الرسالة كاملة و انما اورد المرزباني بضع صفحات منها في كتابه الموشح .

و ذكر ابن المعتز في مقدمة رسالته انه سيقف موقف الحياد من خصوم ابي تمام و مؤيديه و قال : [ربما رأيت في تقديم بعض أهل الادب الطائي على غيره من الشعر افراطا بينا فاعلم أنه أوكد أسباب تأخير بعضهم أياه عن منزلته في الشعرلما يدعوه اليه اللجاج فأما قولنا فيه فأنه بلغ غايات الاساءة والاحسان] [٤٥] .

ويبدو أن ابن المعتز لم يضع رسالته هذه الا للغض من قدرة أبي تمام الفنية و الانتقاص من شعره فهو يهاجمه و يتحامل عليه و يسفه شعره و يتهمه بالسرقة [٤٦] .

وممن انتصر لأبي تمام ، و ذهب في مناصرته حد التعصب و التطرف أبو بكر محمد بن يحيى الصولي صاحب كتابي [أخبار أبي تمام] و[أخبار البحتري] . و هو يميل الى أبي تمام و يفضله على البحتري ، ومناصرته لأبي تمام كانت اقرب الى الاسراف و التعصب منها الى النقد الموضوعي الدقيق . وهو يرى أن خصوم أبي تمام أحد أثنين : اما دعى للعلم لم يستطع أن يفهم شعره و معانيه فذهب الى الطعن به لأن الانسان عدو ما جهل ، ومن جهل شيئا عاداه [٤٧] . وأما ساقط خامل باحث عن الشهرة و استجلاب المعرفة فألف في الطعن عليه كتبا و استغوى عليه قوما فيعرف بخلاف الناس ويشتهر أمره و قد قيل خالف تذكر [٤٨] .

ولاشك أن هذه الخصومة بين النقاد حول شعر أبي تمام قد ساهمت في ازدهار النقد و تطوره ، و على الرغم من كثرة ما كتب في هذه الخصومة فأن كتاب [الموازنة بين أبي تمام و البحتري] لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ يبقى متميزا عن غيره ، فهذا الكتاب يعد وثبة في تاريخ النقد العربي، و هو موازنة دقيقة مؤيدة بالتعليل و التفصيل الملم بامعاني والالفاظ

والموضوعات الشعرية . و لا خلاف عند أغلب من درسوا هذا الكتاب من النقاد المحدثين أن هذا الكتاب قد التزم في تأليفه الكثير من شروط المنهج العلمي التي تشبه مناهجنا اليوم من دعم للأحكام بالأسانيد و التزام الحياد الموضوعي في الموازنة و الحكم . و استقصاء شامل لكل ما كتب في موضوع هذه الخصومة ليتسنى له عرض وجهات النظر المختلفة فيكون أكثر اصابة و موضوعية و دقة . و من هنا يمكن القول بحق أن الآمي أول ناقد منهجي و موضوعي في أدبنا العربي ، و كان كتابه الموازنة نقطة تحول في تاريخ النقد .

وخلاصة مذهب الأمدي في الموازنة يتمثل في الآتي :

١. موضوعية النقد :

يعرض الأمدي آراء النقاد المختلفة ممن انتصروا لهذا او لذاك ، و يورد حجج كل فريق منهما في تفضيل صاحبه ، و يوضح منذ البداية في مقدمة الكتاب أنه لن يفضل احد الشاعرين على الاخر بصورة عامة فيقول : [و لست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي ، لتباين الناس في العلم و اختلاف مذاهبهم في الشعر ، و لا أدري لأحد أم يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين . فاما أنا لست أفصح بتفضيل أحدهما على الاخر ، و لكني أقارن بين قصيدتين من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن و القافية ، و اعراب القافية و بين معنى و معنى فأقول : أيهما اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ثم أحكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما اذا أحطت علما بالجيد و الرديء] [٤٩] .

٢. تحقيق النصوص وتصحيح نسبتها :

يشير الأمدي في كتابه في اكثر من موطن الى أنه قد رجع الى النسخ القديمة لشعر كل من الشاعرين ويحقق شعرهما و يبين ما في الروايات من اضطراب او خطأ في الوزن و يرفض بعض ذلك و يسميه بالانتحال .

٣. مناقشة آراء السابقين من النقاد :

مناقشة تدل على تمكنه و تضلعه في اللغة ، كما تشير الى ذوق ادبي رفيع . ويقر الأمدي بعض ما ذهب اليه هؤلاء .. و يكشف عن أخطاء بعضهم الآخر .

٤. دراسة السرقات :

جمع سرقات ابي تمام وأرجع بعضها الى اصولها وعلل بعضها الآخر بكثرة محفوظة من سعر القدماء و المحدثين و بين الخطأ في جانب منها لأنها من المعاني العمة المشتركة بين الناس .

و بعد ان انتهى من ذلك عرض لسرقات البحتري على هذا النحو ، ثم انتقل الى دراسة أخطاء أبي تمام و عيوبه ، و بعدها تناول اخطاء البحتري و عيوبه .

٥. الموازنة التفصيلية :

بعد أن انتهى من الحديث عن أخطاء و عيوب كل من الشاعرين أخذ بالموازنة التفصيلية بينهما ، و هي موازنة موضوعية تناول فيها المعاني التي طرقها كل منهما ، و لم يرضى بالحكم العام في الموازنة بل وازن بين المعاني الجزئية التي طرقها كل منهما .

و بعد ان عرضنا للخصومة التي نشبت حول ابي تمام و البحتري و تحدثنا عن الكتب النقدية التي الفت في هذه الخصومة و توقفنا عن الموازنة و بينّا ما فيها من إثراء للنقد و وضحنا مناهجنا و موضوعاتها ، بعد هذا نرى أن نعرض لخصومة أخرى نشبت في ذلك القرن و كانت أعنف من سابقتها إذ انها ما كادت نار الخصومة تهدأ بين أنصار ابي تمام و البحتري حتى اشتعلت نيران خصومة أعنف و اقوى حول أبي الطيب المتنبي شاعر ذلك العصر الذي جمع في شعره بين روعة القديم و سحر الحديث " فهو يجيء بالجزالة و القوة و البيان على خير ما كان يجيء به القدماء ، و يغوص في معاني الحياة الإنسانية غوصا بعيدا ، و يضمن شعره فلسفة حياة وثقافة تنتمي الى القرن الرابع [٥٠] .

و كان في الشاعر تكبر و استعلاء على شعراء عصره فأشتد الخلاف حوله و ألف العديد من المؤلفات في هذه الخصومة ككتاب (المنصف للسارق والمسروق من المتنبي) لابن وكيع ، و كتاب (الابانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى) للعميدي ، و (الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي و ساقط شعره) لحاتمي ، و(الرسالة الحاتمية) ، و (الكشف عن مساوىء شعر المتنبي) للصاحب بن عباد ، و كان كتاب (الوساطة بين المتنبي و خصومه) لعلي بن عبد العزيز الجرجاني أهم هذه الكتب جميعا ، و ترجع اهمية هذا الكتاب الى امرين :

اولا : لأتصاله بشاعر يعد اكبر شعراء عصره دون منازع الذي شغل الناس به منذ ذلك اليوم و حتى يومنا هذا .

ثانيا : لمنهج الجرجاني في كتابه الذي اتسم بالموضوعية ، و البُعد عن التعصب الذميم مما يذكرنا بمنهج الامدي .

و يحسن ان نجمل اهم القضايا و الموضوعات التي عالجها الجرجاني في هذا الكتاب و هي :

١- القديم و الحديث :

وقف من هذا الامر كما ذكرنا سابقا موقف القاضي النزيه و تحدث عن الشعر القديم و الحديث حديثا بعيدا عن التعنت و التعصب و رأى ان الشعر يساير العصر و يتطور بتطور الزمن ، و ينبع من البيئة و يتلاءم معها ، و هو يذكرنا في حديثه بابن قتيبة و يقول موضحا موقفه هذا : ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع و الرواية و الذكاء ثم تكون الدراية مادة له و قوة لكل واحد من اسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز و بقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان و لست افضل في هذه القضية بين القديم و المحدث و الجاهلي و المخضرم و الاعرابي و المولد [٥١] .

٢- المذهب الفني :

يميل الجرجاني الى السهولة في التعبير مع البعد عن الركاكة و التكلف ويقول : [فلا تظنن اني اريد بالسمح السهل الضعيف الركيك و لا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث بل اريد النمط الاوسط ما ارتفع عن الساقط السوقي و انحط عن البدوي الوحشي] (٥٢) .

و يرى ان تقسم الالفاظ على رتب المعاني في الشعر و النثر و يرى ترك التكلف و رفض التعمل و الاخذ بالاسترسال للطبع و يعنى بهذا الطبع المهذب الذي قد صقله الادب و شحذته الرواية ، و جلته الفطنة ، و الهم الفصل بين الردىء و الجيد ، و تصور امثلة الحسن و القبح .

٣- النقد الموضوعي :

يدعو الى الاعتداد بالاراء النقدية المعتمدة على دليل و حجة و لا يكترث بالنقد الذي يقوم على الانطباعات الذاتية و يدعو للابتعاد عن التعصب في النقد و الالتزام بالموضوعية فهو يرى ان العصبية تكدر الطبع و تفل الذهن ، و تلبس العلم بالشك ، و تحسن بالمنصف الميل ، و متى استحكمت و رسخت صورت لك الشيء بغير صورته ، و حالت بينك و بين تامله ، و تخطت بك الاحسان الظاهر الى العيب الغامض . وما ملكت العصبية قلبا فتركت فيه للتثبت موضعا ، او ابقت منه للانصاف نصيبا (٥٣) .

٤- الدين و الفن :

يرى الجرجاني ان ينظر الى الشعر بمقاييس الفن و الجودة فقط لا بالمقاييس الدينية و الاخلاقية لانه لو كان سوء الاعتماد سببا لتاخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين و يحذف ذكره . و لوجب ان يكون هذا ايضا بالنسبة للشعراء الجاهليين [و لكن الدين بمعزل عن الشعر] (٥٤) .

٥- عمود الشعر :

حدد الجرجاني عمود الشعر الذي خرج عليه ابو تمام و التزم به البحتري بعدة امور حيث يقول : [و كانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى و صحته و جزالة اللفظ و استقامته و تسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب و بده فاغزر و لمن كثرت سوائر امثاله و شوارد ابياته ، و لم تكن تعبأ بالتجنيس و المطابقة و لا تحفل بالابداع و الاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر و نظام القريض] (٥٥) .

٦- السرقات :

يرى الجرجاني ان السرقة تكون في المعنى و في اللفظ و كل منهما درجات، و يحذر من قصر السرقات على الالفاظ كما يرى انه من السخف ان يتهم شاعر بسرقة معنى مما يطلق عليه (العام المشترك) مثل التشبيهات المتداولة كتشبيه الحسن بالشمس و البدر ، و الجواد بالغيث و البحر ، و البليد البطيء بالحجر و الحمار ، و الشجاع الماضي بالسيف و النار .. و كذلك المعنى الذي اصبح عاما بعد ان كان خاصا فلا يعد مسروقا و ان كان الاصل فيه لمن انفرد به كتشبيه الطلل المحيل بالخط الدارس و بالبرد النهج ، و الوشم في المعصم و الظعن المتحملة بالنخل (٥٦) . و يرى ان الشاعر الماهر قد يأخذ المعنى من غيره فيزيد فيه او يعدل به عن موضوعه او يقلبه الى ضده او يغير نظمه و قافيته و رويه فيخرج من باب السرقات . و قد يكون السرق بأجتماع اللفظ و المعنى و نقل البيت او المصراع و هذا قد يسمى غصبا و الناقد الحاذق هو الذي يدرك حيلة الشاعر في قلب المعنى و نقضه .

٧- مناقشة ما اخذ على المتنبي من عيوب :

يدافع الجرجاني عن المتنبي في بعض ما الصقه به من تهم السرق من الشعراء السابقين ، و لا يتجاهل ما هو بين السرقة حسب مقاييسه التي وضعها و ان كان قليلا نسبيا ثم ينتقل الى الحديث عن الاخطاء التي وجهت الى المتنبي من

حيث اللفظ و المعنى و الافراط و المبالغة و الخطا في اللغة العربية و يقسم متهمي المتنبي الى قسمين : قسم من اللغويين و النحاة ، و القسم الآخر من اصحاب المعاني .

و يرد على ذلك ملتمسا العذر للمتنبي و يتهم اللغويين و النحويين الذين يطعنون شعره بانهم لا خبرة لهم بالمعاني كما يصف المعنويين الذين ينقضون من قريضه بانهم لا يجيدون معرفة اللغة و قواعدها .

و يبدو لنا ان الجرجاني كان متأثرا بالامدي في كثير من الموضوعات النقدية التي طرقها و في حياده و اعتماده الموضوعية في احكامه و ان كان قد خالف منهج الامدي في ميله الى المنطق و المقايسة اكثر من تحكيم الذوق الادبي والحس الفني الذي هو احدى السمات البارزة في الموازنة .

و هكذا يمكن القول ان القرن الرابع للهجرة شهد نهضة نقدية كبيرة و ان هذه النهضة تمثلت في جهود مجموعة من اعلام الفكر و الثقافة و الادب و لذلك اتضحت مناهج النقد و تدعمت اركانه و توطدت اسسه . و تنوعت قضاياه .

المصادر والمراجع :

(١) أخبار أبي تمام ، أبو بكر محمد بن يحي الصولي ، تحقيق : خليل محمود عساكر و محمد عبده عزام و نظير الاسلام الندي ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة و النشر .

(٢) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : هـ . ريتر ، استانبول ، مطبعة وزارة المعارف ، سنة ١٩٥٤ .

(٣) البديع ، عبد الله بن المعتز ، تحقيق : كراتشكوفسكي ، دمشق ، دار الحكمة .

(٤) البلاغة تطور وتأريخ ، دكتور شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، دار المعارف .

(٥) البيان و التبيين ، الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، سنة ١٩٤٨ .
(٦) تأريخ النقد الادبي عند العرب ، دكتور إحسان عباس ، لبنان ، بيروت ، دار الثقافة .
(٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٥.
(٨) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد رشيد رضا ، الطبعة السادسة ، مطبعة محمد علي صبيح و اولاده ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ .
(٩) الشعر الجاهلي ، دكتور يحي الجبوري ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ .
(١٠) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، مطبعة بريل ، ١٩٠٢ .
(١١) الصناعتين ، ابوهلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي و محمد أبوالفضل إبراهيم ، طبع بدار إحياء الكتب العربية .
(١٢) طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، سنة ١٩٨٠ .
(١٣) العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ١٩٧٢ .
(١٤) عيار الشعر ، ابن طباطبا ، تحقيق : دكتور محمد زغلول سلام ، الاسكندرية ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٠ .
(١٥) الفهرست ، ابن النديم ، القاهرة ، المكتبة التجارية ، سنة ١٣٤٨ هـ .
(١٦) في الميزان الجديد ، دكتور محمد مندور ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .
(١٧) قدامة بن جعفر و النقد الادبي ، دكتور بدوي طبانة ، مكتبة الانجلو المصرية .

(١٨) الموازنة بين ابي تمام و البحتري ، ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، سنة ١٩٦٤ م .

(١٩) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ابو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٣٨٥ هـ .

(٢٠) النقد الادبي حول ابي تمام و البحتري ، محمد علي ابو حمده ، بيروت ، دار العروبة .

(٢١) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت ، دار الكتب .

(٢٢) النقد المنهجي عند العرب ، دكتور محمد مندور ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، الفجالة .

(٢٣) الوساطة بين المتنبي و خصومه ، علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم و علي محمد البجاوي ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي .

الهوامش :

(١) الفهرست ، ٣٤٩ .

(٢) نفسه ، ٢٥٠ .

(٣) نفسه ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٤) البيان و التبيين ، ١ / ١٣٤ .

(٥) نفسه ، ١ / ١٣٥ .

(٦) قدامة بن جعفر و النقد الادبي ، ٢١ .

(٧) الشعر الجاهلي ، ١٥٨ ، و اصول الشعر العربي ، ١٦ .

(٨) طبقات الشعراء ، ٨ .

(٩) نفسه ، ٢٣ .

(١٠) نفسه ، ٢٤ .

(١١) نفسه ، ٨٤ .
(١٢) نفسه ، ٢٣ ، ٢٤ .
(١٣) نفسه ، ٨ .
(١٤) نفسه ، ١٠ ، ١١ .
(١٥) الحيوان ، ٢ / ٤٩ .
(١٦) نفسه ، ٦ / ٢٧٩ .
(١٧) نفسه ، ٦ / ٢٨٠ .
(١٨) نفسه ، ٤ / ٤٥٣ .
(١٩) نفسه ، ٣ / ٤٠ .
(٢٠) الشعر و الشعراء ، ٥ .
(٢١) نفسه ، ٥ .
(٢٢) نفسه ، ١٦ .
(٢٣) كتاب البديع ، ١ .
(٢٤) النقد المنهجي عند العرب ، ٦١ .
(٢٥) عيار الشعر ، ٢٥ .
(٢٦) نفسه ، ٢٢ .
(٢٧) الحيوان ، ٣ / ٤٠ .
(٢٨) البيان و التبيين ، ١ / ٨٣ .
(٢٩) الحيوان ، ٣ / ٤٠ .
(٣٠) الشعر و الشعراء ، ٧ – ٩ .
(٣١) نقد الشعر ، ٦٤ .
(٣٢) عيار الشعر ، ٢١ ، ٢٢ .
(٣٣) نفسه ، ١٤٣ .
(٣٤) الصناعتين ، ٦٣ ، ٦٤ .

(٣٥) العمدة ، ١ / ١٢٤ .
(٣٦) دلائل الاعجاز ، ٤٦ .
(٣٧) نفسه ، ٣٠٠ .
(٣٨) نفسه ، ٤٨ ، ٤٩ .
(٣٩) نفسه ، ٤٩ .
(٤٠) اسرار البلاغة ، ٤ .
(٤١) نفسه ، ١٠ .
(٤٢) نفسه ، ٢٢ .
(٤٣) في الميزان الجديد ، ١٨٦ ،١٨٧ .
(٤٤) النقد الادبي حول ابي تمام و البحتري ، ٣٧ .
(٤٥) الموشح ، ٢٧٧ .
(٤٦) نفسه ، ٢٨١ .
(٤٧) اخبار ابي تمام ، ١٤ .
(٤٨) نفسه ، ٢٨ .
(٤٩) الموازنة ، ٤ ، ٢٥ .
(٥٠) تأريخ النقد الادبي عند العرب ، ٢٥٢ .
(٥١) الوساطة ، ١٥ .
(٥٢) نفسه ، ٢٤ .
(٥٣) نفسه ، ٤١٤ .
(٥٤) نفسه ، ٦٤ .
(٥٥) نفسه ، ٣٣ .
(٥٦) نفسه ، ١٨٦ .